

محمد بن عبد الوهاب

داعية التوحيد والتجديد

في العصر الحديث

ارتسامات مُستلهمة من سيرته الإسلامية الإصلاحية

لعلامة العراق

محمد بهجة الأثري

حققه وضبط نصه وعزا آياته وخرج أحاديثه ووثق نقوله وعلق عليه

أحمد بن عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله التويجري

II

الحمدُ لله وحدهُ، بيده ناصيتي، وله الأمرُ كُلُّهُ .. والصلاة والسلام على خير خلقه محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحابتِه ومن والاه .
أما بعدُ ..

فقد دعنتي رئاسة (جامعة الإمام محمد بن سُعود الإسلامية) لأشارك في هذا الأسبوع المحمودة مقاصدُه، مشكورةً على حسن الظن، فتذكرت نبأ أمير مشرقي كان مولعاً بالكتب، سمع بكتاب ألفه أديب في الأندلس، استحسنة الأدباء وقرظوه، فتناقت نفسه إليه، فلما حصل في يده لم يجد فيه ما لا يعرفه، فأطبق عليه دَفْتِيَه، وقال: « هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا » ! .

فقلت في نفسي: ليت شعري، ما الذي حدا بالقوم أن يدعوني إلى أمرٍ، هم أهلُه، ومنهم يقتبس الحديث عنه؟ فما عسى أن أحمل إليهم من شيء يعلمون من ظاهره وخافيه ومن موارده ومصادره ما لا أعلمه؟ أأخذ بضاعتهم وأردّها إليهم؟ أأخلفت نخيل (هَجَرَ)، فأحمل إليها تمرأ من (العراق)؟ وهتف بي هاتف من النفس، يقول: أن لا، ليس الرأي ما تراه، فإنَّ القوم كما تعرفهم أذكى من أن يذهب ذلك عنهم، وليس بنخيل (هَجَرَ) إخلاف .

إنهم إنّما دعوك، لتسمعَ منهم فتتعلّم، فقلت له: إنّ هذا لهو حق اليقين، وإنّه لجميل، فقال: وإذا نطقت لتسمعهم ما عندك، ففُجرت أو أخطأت، سدّوك. فقلت: وإنّ هذا والله لأجمل .

فعزمت ولبييت ولساني يخاطب نفسي بما قال أبو العلاء:

خُذِي رَأْيِي، وَحَسْبُكَ ذَاكَ مَنِّي عَلَى مَا فِيَّ مِنْ عِوَجٍ وَأُمَّتٍ
وَمَاذَا يَبْتَغِي الْجُلُوسَاءُ مَنِّي؟ أَرَادُوا مَنْطِقِي، وَأَرَدْتُ صَمْتِي!

وَإِنْ رَجَيْتِي، إِذْ أَنْطِقَ بِالَّذِي دُعِيتَ لَهُ، أَنْ لَا أُجَامَلَ فَيُعْضَى عَلَى
أُمَّتٍ كَانَ الصَّمْتُ يَسْتَرُهُ ! ..

محمد بن عبد الوهاب

عنوان الأسماء العالية في التاريخ العربي الإسلامي الحديث، كالشمس
يُذَكَّرُ غير مَلْقَب، لِأَنَّهُ يَسْمُو عَلَى التَّلْقِيبِ بِالْأَلْقَابِ، وَالتَّحْلِيَةِ بِالنَّعْوَتِ .

إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ بِهَا، وَلَكِنْ هِيَ تَعْرِفُ بِهِ .

وَإِنَّ حَلِيَّةَ مِثْلِهِ لَفِي عَطْلِهِ .

وَالجَوَاهِرُ تُذَكَّرُ أَسْمَاءَ مَجْرَدَةً، وَلَا تُوصَفُ؛ لِأَنَّ مَعَانِيَهَا هِيَ
أَوْصَافُهَا .

وَيَقَالُ « الشَّمْسُ » وَ « الْقَمَرُ » وَلَا يُحَلِّيَانِ، لِأَنَّ حَلِيَّتَهُمَا فِي كَمَالِهِمَا
وَتَمَامِهِمَا .

مَا كَلَامُ الْأَنَامِ فِي الشَّمْسِ، إِلَّا أَنَّهَا الشَّمْسُ، لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ !

وَقَدِيمًا أَنْكَرَتْ طِبَاعُ الْعَرَبِ أَنْ يَعْرِفَ الْمَشْهُورَ فِي الْأَمَلَاءِ، فَقَالَ
قَائِلُهُم:

« قَدْ عَرَفْنَاهُ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ » ؟

وَإِنَّ مِنَ الْأَسْمَاءِ نَكَرَاتٍ مُغْرَقَةً فِي التَّنْكِيرِ، حُلِّيَتْ بِالْأَلْقَابِ، وَرُصِّتْ
لَهَا أَلْفَاظُ التَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ رِصًّا سَطُورًا بَعْدَ سَطُورٍ، لِيُتَعَرَّفَ فَنُتَعَرَّفَ، فَمَا

زادتها إلا تنكيراً وضموراً وخفاءً، ومات أصحابها وما ذُكروا .
وقد يموتُ أناسٌ لا تُحسُّهُمُ كأنَّهم من هوانِ الخَطْبِ ما وُجِدُوا

لقد نزعت الأصالة العربية إلى التجريد، وتعلقت بالجواهر والمعاني،
فَسَمَّتْ عظماءها أيامَ العزَّة بأسمائهم المجرّدة، ولم تغرقهم بالألقاب .

ولما استحالت بعضُ الطَّبَاعِ، أيَّامَ تغلّب البُغاة الطُّغاة على ديار العرب
والإسلام، استحلّى المستدرجُون المستكينون ما حلَّاهم به المسيطرون من
الألقاب البراقة، واستعذبوا ما أذاقوهم من حلوات الرُّنْبِ المُغْلِيةِ المُدْنِيَةِ .

وفي سمات أيام العزّة جمالٌ وجلال فطريّان، عليهما من الصّدق
والصفاء رونق ورُواء، وبالمعاني تشاد المعالي ويرفع البنيان ..

فلا عَلَيَّ أن أُسمِّي « محمد بن عبد الوهاب » ولا ألقبه .

إنه معنى كريم .. استقرّ في الضمائر، وليس جسداً تطوف حوله
الأجساد. في حروف اسمه القلائل الصِّغار، خصال عبقرية كِبار.. انتلفت
فأنشأت مزاجاً فرداً، عجبياً في أخذه وعطائه .

ذهنيّة عبقرية، في تكوينٍ سويّ، من طراز خارق للمألوف قياساً إلى
العادة والزمان والمكان، وفي حاقّ الجبلة والتكوين .

وقوّة نفسيّة وثقى، متوثبة ومتحدية.. تفرض الهزيمة على القوَى
المضادةً فرضاً، وتثبت ثباتَ طمّاحِ الذوائب الأشمّ بوجه الأعاصير، تتناوح
من عن يمينه وشماله، ومن أمامه ومن خلفه، تريد زحزحته، فترتدّ عنه
وتبيد، وهو (هُوَ) غير مضارّ .

وقيمٌ خُلقية صافية صفاء ألق الضيَاء في يوم الصحو البهيج، ليس
دونه حجاب.. ترفعت على شهوات النفس، وتحلّت بالإيثار، يصرّفها عقل

دَرَكَ وقلب يَقْظُ، وترفدها الرِّكَانَةُ والرِّكَانَةُ، والتَّصَوُّرُ الشُّمُولِيّ الذي يخرج من دائرة الفكر المحدود ليبسط أبعاده على الآفاق .

وقد يكون الإنسان صاحب ذهنيّة عبقرية، ولكنة لا يملك القوّة النفسية المتوثّبة المتحدية. فيكون منه صاحبُ تصوّرات فكريّة، وليس صاحب قوّة فاعلة، وقد يُعْني في مجال الفكر، ولا يُعْني في مجال الفعل .

وقد يكون صاحب قوّة نفسيّة، ولكنّه لا يملك الذهنيّة العبقرية التي تصرّف القوّة على مسار السّداد والتّوفيق، فتتعطل قوته، فلا يأتي بأمر ذي بال.

وقد يكون صاحب ذهنية عبقرية وقوة نفسية متوثبة، ولكنه يفتقد القيم الخلقية الرفيعة، فلا تجديه خاصيته، أو يفتقد العقل الشمولي، فيحبس جهده على أفق خاص يدور في دائرته الضيقة، محدوداً بحدودها، لا يخرج منها إلى ما وراءها من آفاق وأبعاد .. فلا يكون منه أمر كبير .

ولقد جمع الله في (محمد بن عبد الوهاب) هذه الخصال جمعاء، متمازجة متحابّة، ومترافدة، ليجيء منه الإنسان العظيم، الذي يصنع الصنع العظيم .

وهنا يجيء السؤال الكبير :

ما الصنع العظيم الذي صنعه (محمد بن عبد الوهاب)؟

الجواب عن هذا السؤال الكبير، يصوغه واقع التاريخ وحقائقه، ولست أنا من يصوغه .

واقع التاريخ، يقرر في صراحة ووضوح بيان أنه الرجل الذي أيقظ العملاق العربي المسلم من سبات في جزيرة العرب دام دهرًا داهرًا،

وأشعره وجوده الحي الفاعل، وأعاد إليه دينه الصحيح، ودولته العزيزة المؤمنة، ودفعه إلى الحياة الفاعلة ليعيد سيرة الصدر الأول عزائم وعظائم وفتوحاً ..

ويقرر غير مُنازع أنه رجل التوحيد والوحدة، والثائر الأكبر الذي رفض التفرق في الدين رفضاً حاسماً، فلم يكن من جنس من يأتون بالدعوات ليضيفوا إلى أرقام المذاهب والطرائق المَزَقِ رقماً جديداً، يزيد العدد ويكثره، ولكنه أوجب إلغاء هذه الأرقام، ودعا لتحقيق « الرقم الفرد » وحدة: الرقم الذي لا يقبل التجزئة كالجوهر الفرد، ألا وهو (الإسلام).

والإسلام، طريقة واحدة، لا تتفرّع، ولا تتعدّد .

وقد جاءت البيّنات كفلق الصباح بأن هذا « الرقم الفرد » هو الذي استقام به أمر العرب، وكوّن الوحدة الكبرى والدولة العظمى وقد انضوى تحت لوائها الخفاق أهل الأرض من كل جنس ما بين مشرق للشمس ومغيب، متآخين في الله، متساوين في الحقوق، لا فضل فيها لأحد على أحد إلا بتقواه، متعاونين على بناء حضارة أخلاقيّة جديدة تجمع إلى مطالب المادة مُستشرفات الروح.

فلما أفسد التوحيد، وزالت الوحدة، ذهب التفرق في العقيدة بهذا المجد العظيم.. فجاء (محمد بن عبد الوهاب) داعياً للعودة إلى الأصل الذي قام عليه ذلك المجد وعلا سمكه وعز وطلال، وقد حقق ما أراده في جزيرة العرب، وأشاع اليقظة في العالم الإسلامي، وكان لفكره في كل صُقع أثرٌ مشهود ..

فهذا هو الصنع العظيم، الذي صنعه الرجل العظيم .

!!!

جاء (محمد بن عبد الوهاب) على فترة من المصلحين الكبار أصحاب الأصوات الجهيرة في الإصلاح والدعوة على التوحيد والوحدة، وحين ظننت الظنون بالعرب وبالمسلمين، إذ اكتنف الظلام جِواء العالم الإسلامي، وانبهت المطالع، وركدت ريح العرب في ديارهم، وتفرقت كلمة المسلمين فضعفوا، وهان شأنهم على الأقوياء، فطمع فيهم الطامعون من كل جنس، وبغت عليهم حتى الشراذم الصهيونية .

وكان إشراق النور الجديد من قلب هذا الظلام، من الأرض القفرة، عجباً من العجب، ومثار دهشة الغرب خاصة، إذ كانت دُوَّله بعد عصر (الرّينصانص) والثورة الصناعيّة، تُعدّ العُدَد، وتتأمر فيما بينها على العالم الإسلامي، وتتحالف للسيطرة على ينابيع ثرواته العظيمة .. تُغني بها فقرها. وكان قد استقر عند هذه الدول أن العالم الإسلامي قد صار جثة هامدة لا حراك بها، فلا بد من أن تكون هي وارثة أرضه وكنوزه ومعادنه وخيراته.

فلما سمعت صيحة الإسلام الجديدة المدوية تنطلق من بين رمال الجزيرة دهشت، فأسرعت تراجع ظنونها الخائبة، وارتدت إلى أذهانها صيحة الإسلام الأولى وانبعثت من هذه الجزيرة العربية نفسها كالأتي يتحدّر دقّاقاً من مخارم الجبال إلى أطراف المعمورة فتحاً وإنشاءً وإعماراً، لا أجلّ منه ولا أروع .

فانتصبت لهذا الأمر الجديد.. ترصد أخباره، وتتعرف موارده ومصادرّه، وتتبين مبادئه وغاياته، عسى أن يكون فجره كاذباً، وأن يعود نشوره موتاً.

حتى إذا كذب الواقع آمالها، طفقت تحاول إبطاله، فأوحت إلى وسائل

إعلامها أن تلقي الشبهات عليه، وتشوه صورته، فرمته ورمته الناهض به بالعضائه، وخطت ما شاءت لها الأهواء أن تخط مما يعرفه العارفون وما بنا حاجة إلى ترديده، وقصت الشان كله حين وضعت هذا الأمر الجديد العظيم في بؤرة الطائفية التي تزيد أرقام الطوائف رقماً جديداً، أي عكست الحال، فنبرته بالوهابية « Wahhabism » وأذاعت هذا النبز الأنياء الجوائب، فتلقفته الأسماع، وردتته الألسنة، ودونتته الصحف والمجلات والكتب ودوائر المعارف الكبرى بكل لسان .

وراق الدولة العثمانية هذا النبز، فأجرته على ألسنة الدراويش ومرتزقة طعام التكايا والزوايا من تنابلة السلطان، وأفرطت في إلقاء الشبهات عليه وتشويهه، ولاسيما بعد استفحال شأنه، وقيام الدولة العربية الإسلامية في جزيرة العرب على أساسه وقواعده، فلم يكن نبز أشنع من نبز الوهابية في طول ممالكها وعرضها، ودام ذلك أمداً، ووعينا إبان الطفولة وهو يقرن في بلادنا بما يسمونه « الفرمصونية » و « البزتكيشية » و « المسقوفية »، ويعنون « الماسونية » لكفرها، و « البرتغالية » لسوء أفعال البرتغال إبان احتلالهم بلاد الخليج العربي وعمان وغيرها، و « الروس » لحروبهم الدولة الإسلامية ومآتهم المنكرة في هذه الحروب !.

ذلك فعل السياسة، وفي مثله يستوي الطامعون من كل جنس وملة عند تساوي المقاصد والأغراض، والسياسة الفاسدة لا ضمير لها ولا خلق، ولطالما استعاذ بالله العقلاء من (ساس) ومشتقاته، ومن الجهل جندية الأعمى البصيرة الذي يلقف ما تأفكه السياسة، ويرجف بما تلقيه إليه، ليذيعه غير عالم بالمقاصد والنيات والغايات ..

لقد نظرت السياسات إلى هذا الأمر الجديد في جزيرة العرب

بمنظارها الخاص، ورصدته بعينها اليسرى العوراء، لا بعين الحقيقة الصحيحة، فصوّرتة بما يحقّق مقاصدها وأغراضها، ومن وراء ذلك يراد الذهاب بريح العرب، وهم مادّة الإسلام .

وكذلك وقف رؤساء العصبية، وهي مختلفة الألوان والمشارب، موقف هذه السياسات من هذا الأمر الجديد ..

إنهم تنكّروا له أشدّ التنكّر، وأوحوا إلى أتباعهم أن يتنكّروا له كذلك، ويذيعوا قول السوء عنه، فقالوا فيه، وهو النور الذي يهديهم، ما لم يقله (مالك) في الخمر، فكانوا أعواناً للسياسة في تشويهه وحربه، وقد امتزج في فكرهم الحرص على الموروث من الآباء بالخوف من زوال زعاماتهم، وسقوط الامتيازات التي يتمتعون بها، هم وحدهم دون الأتباع الجهلاء المساكين المستضعفين المنقادين للرؤساء بأزمة الشعبذات، وبالشعبذات يُسخرُ الجهلاء غير واعين ولا دارين .

شئبنة معهودة في مجتمعات الناس كافة، تقترن بانغلاق الأذهان، وتنطوي على حفظ المصالح والامتيازات الخاصة، ومنها ينشأ الصراع الدائم في كل زمان ومكان، وعند كل جيل وقبيل، في شرق وفي غرب، ولن تجد لسنة الله في خلقه تبيلاً .

وأعظم هذا الصراع في التاريخ العربي، هو ذلك الصراع الرهيب بين الإسلام والوثنية، وفي الإسلام الحياة والنور، وفي الوثنية الضمور والظلام.

والغلب في نواميس التكوين، إنما يكون للأصلح دائماً مع طول الجهاد والصبر، وهو قانون لا يتخلف إلا عن علة غير منظورة .

وواضح أنّ الطمع والحرص على احتواء النعم والامتيازات يلقيان في

رُوع أصحاب السياسات والامتيازات ما ليس له وجود في الواقع، وهم حين يدعون إلى الصلاح في أي شأن من شؤون الحياة، يتوهمون الخسران وضياح المكانات، وفقدان الامتيازات، فيقاومون ويقاوتلون بغير عقل .

ولننظر ماذا خسر رؤساء المشركين من العرب حين تركوا شركهم، ودخلوا في الإسلام .. ألم ينتفعوا به هم والفقراء المستضعفون من أتباعهم في دنيا وفي دين؟ ألم يصبح خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام^(١)؟.

إن الحقيقة الأزليّة الخالدة في نواميس الحياة، قد تصيبها السياسات والعصبيّات بشيء من الضّرِّ، ولكنّها في جميع الأحوال تعجز عن طمسها أو إزالة معالمها.. ثم هي، وأعني السياسات والعصبيّات، لا تملك الفصل في شأنها، وليس ما تصوّره تزييناً أو تقبيحاً هو واقع الحقائق، وإنما يفصل فيها العلم وحده بتجرده المطلق ونزاهته وموضوعيته الخالصة من الشوائب والأهواء. إنّه يعنيه من الأشياء في كل شأن يعرض له، تعرّف الحقائق في عُرْيها وسفورها كيفما كانت الحال، وفي أي صورة تكون عليها، وإذا كانت السياسات والعصبيّات تبني أحكامها على الأهواء والأغراض الخاصّة، لا تحيد عنها، فإنّ العلم يبني تصورات وأحكامه على البيانات غير متحيز ولا متحرّف، وهو يستمد هذه البيّنات من الوثائق الأصليّة الصحيحة مما يدوّنه الإنسان بنفسه خاصّة، لأنّها فصل الخطاب والحجّة البالغة. ومن هذه الوثائق الأصليّة ونحوها يستنبط العلم التصرّوات، ويهتدي إلى مقاطع الحق

(١) انظر مشكوراً: صحيح البخاري ح(٣٣٥٣٥)، وصحيح مسلم ح(٢٣٧٨). ونص الحديث قوله p : (قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: « أتقاهم »، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال: « فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله »، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال: « فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا ».

فيوقن، ثم يرسل أحكامه التي لا تستونف ولا تميز كما يقول القضاة .

###

على هذي من هذا الفكر، التمسث مقاطع الحق، في هذا الأمر الجديد وصاحبه، من معادنها، غير متأثر بسياسة من السياسات، أو عصبية من العصبيات.

وبين كل أمر وصاحبه، تقوم علاقة وأصرة، وتعرف صاحب الأمر يتقدم تعرف أمره؛ لأنه هو مصدره، وإليه يؤول .

وقد تعرفت سيرة (مجدد بن عبد الوهاب) في كتب المقربين إليه، والقريبين منه زماناً ومكاناً، فهم أعرف به، ولم ألتمس شيئاً من أمره في كتب مؤرخيه الثانويين ونحوهم .

وتعرفت دعوته، والفكر الذي طبعته به، من مؤلفاته، وهي أنواع.. سيرة نبوية، وتفسير، وحديث، وأحكام، وتوحيد، ومما هو أدل منها على طبيعة فكره واستقلال رأيه، أعني فتاواه ورسائله ومجادلاته ومراسلاته مع العلماء والرؤساء في جزيرة العرب وما وراء جزيرة العرب في شأن دعوته: مناقشاتها، ومبادئها، وغاياتها، وأصولها، وأدلتها؛ والمرء وما يقوله ويقره ويفصح عنه من نيته وفكره، لا ما يقوله خصومه فيه .

وأشهد مخلصاً أن بين سيرة (مجدد بن عبد الوهاب) ودعوته، (ولأسمها: الدعوة التصحيحية)، رحماً واشجة، وأصرة وثيقة محكمة، بيدوان من غير تكلف للرؤية في هذا التطابق التام بين الفكر والتطبيق، وبين ضلالة

الدعوة وضلّاعة صاحب الدعوة وشخصيته المتميزة بأنواع من الصفات الأصيلة، ومنها ضلّاعة تكوينه البدني، وضلّاعة إيمانه، وصلابته، وتقواه. والآثارُ عامّةٌ، في حال قوتها أو ضَعْفها، نتيجة حال المؤثّر ومزاجه كما هو معروف في مدركات العقل ومسلّماته، وما خلا أدبنا العربي الأصل من الإشارة إلى هذه الحقيقة المسلمة ومن ملحظ العلائق بين الإنسان وما يصدر عنه من شيء .

ألم يقل أحمد بن الحسين أبو الطيّب قبل ألف عام :
على قَدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمُ ؟
وضلّاعة (محمد بن عبد الوهاب) في تكوينه الجسماني، وفي مواهبه وملكاته.. عجب من العجب، فإنّ كل شيء فيه على غاية من القوة والبروز. ضلّاعته في تكوينه الجسماني، تبدو في الرجولة الناضجة التي باكرت صباه، وفي الاحتلام الذي أسرع إليه قبل إكماله الثانية عشرة من عمره، فأخصن من قَورِ احتلامه .

واقترنت بهذه الضلّاعة الجسمانية ضلّاعة نفسية بالغة، فإذا هو يتحمل تبعات الزوجية، ويتصرف بنفسه فرداً في هذه السنّ الطفولية، فيَعْرُوري فجاج الأرضين الموحشة البعيدة المُنْتَأَى بين العيينة ومكّة المكرّمة، فيؤدّي فريضة الحج، ويؤمّ المدينة المنورة الميمونة المباركة، فيقيم بها شهرين متتابعين، مصلياً بالمسجد النبوي طلباً للأجر المضاعف، ثم متشرّفاً بسنّة الزيارة : زيارة الرسول الكريم ﷺ، والسلام عليه، ومستنشقاً أَرْجَ النبوة من كُنْب، ومستفيداً من سَماع الدروس في المسجد المبارك الأثور، ثم يعود إلى مسقط رأسه موفورَ الحظوظ من متع الروح والقلب، مَرْهُوفاً بحجه وصلواته وازدياره، وفرحاً بما شاهد من منازل الوحي وبما

سمع من علماء الحرمين .

وإلى جانب هذه الضلاعة النفسية العجيبة، تبدت ضلوعته الذهنية في سرعة حفظه وحدّة فطنته ويقظة قلبه وعمق فهمه، ومن بيّات ذلك أنه حفظ القرآن العظيم عن ظهر القلب قبل بلوغه العاشرة من العمر، فأدهش الناس من حوله، وقرأ الفقه على أبيه (القاضي عبد الوهاب بن الشيخ الفقيه سليمان التميمي)، وأقبل على كتب التفسير والحديث والعقائد يلتهمها التهاماً، وطالب العلم النجيب نهم لا يشبع، وفي اللغة العربية ما في عيون المها من السحر الحلال، وما يأخذ بمجامع الأفئدة من الإيقاع والفتون، وفي كتب التفسير والسنة الصحيحة المطهرة والفقه والتوحيد، الزاد الطيب الذي يغذي العقول، وينور البصائر، ويشرح الصدور، ويفقه النفوس بما لها وما عليها، لتقول طيباً، وتعمل صالحاً، وفيها العلم العظيم الذي لا أجل منه في علوم فقه الحياة جمعاء.

ومن هذا الفناء في العلم، في أصغر سن، بلغ الصبيّ العبقريّ ما لا يبلغه كبار السن في الأمد البعيد، وفاض على قلمه ما وعاه فؤاده، فإذا هو في سرعة الكتابة مثله في سرعة الحفظ: يكتب في المجلس الواحد كراسة من غرب تعب، فما أشبهه في حالاته العجيبة بـ (تقيّ الدّين بن تيميّة) العظيم في طفولته في الخوارق النفسية والذهنية وسرعة الحفظ وسرعة الكتابة وحدة الفطنة وكثرة الاستيعاب، الذي أدهش دنيا الشام من حوله، وصار مثلاً مضروباً في عبقرية المواهب العالية؛ فلا تثريب على (عبد الوهاب) الفقيه القاضي وإمام الجماعة في بلده أن يطير سروراً وإعجاباً بصبيه العبقرى النجيب، وأن يتحدث لأصحابه عن مدرّكاته، وأن يعلن أنه استفاد منه فوائد في الأحكام قبل بلوغه، بل لا تثريب عليه أن

رآه أهلاً للصلاة بالجماعة، وهذه رجولته ومعرفته بالأحكام وحفظه وديانته وتقواه، فقدّمه إماماً يؤمّ المصلّين، فارتضوه معجبين.

وما يلبث الصبّي الرّجلُ طالبُ العلمِ الناشئُ أن يدفعه وعيه العميق إلى الموازنة بين ما يقرأ من مسائل التوحيد الخالص وما عليه الناس ببلده من مخالفة له في بعض تعبداتهم، ومن تعلقهم بالبدع ومحدثات الأمور، فيثور ثائره.. يردّع العامّة عن منكراتهم، وينكر على العلماء أنّهم يرون الإعوجاج ولا يقومونه.

كان ذلك بدء الإشارة إلى ما سيكون عليه شأنه في الإصلاح في مستقبله.

وقد كُبر على القوم نكيره، فضحكوا منه، فارتدّ إلى نفسه مفكراً في الأمر. فتحدّثه أنّه لن يتمّ له تغيير الحال في مثل سنه، وأنه لا بُدّ له من أشياء يحققها لتكون ظهيره : من علم أوسع من العلم الذي ملك، وتجارِبٌ وحنكة ما ظفر منها بشيء بعد، وسنّ أكبر يطاع في مثلها إذا جهر بالحق وصدع به، فعزم أن يبدأ.

إنّ مثل هذه الرؤية الصحيحة في هذه السنّ الصغيرة، لا تكون إلا من شيخٍ محتكٍ حكيم، أو عبقرٍ محدّثٍ ومُلهِمٍ.. وقد كانه هذا الصبّي الرّجلُ!

ولكأنه في بؤرة تصوّره العميق لحاضر أمره ومستقبله، قد حضرت ملكاته كلها، وظل الشأن موقوفاً على إنفاذ العزم .

فإذا عزيمته حاضرة عنده، تتوثّب به، وتحذوه على المضي بداراً إلى غايته، وقد فعل.

ومن المرجح أنّ ذلك كان قبل بلوغه العشرين .

غادر مسقط رأسه إلى حيث يتاح له أن يعد نفسه إعداداً كاملاً للاضطلاع بالأمر الكبير الذي ينوي تحقيقه .

فإلى أي ناحية اتجه ورحل ؟.

فَصَرَ مؤرّخوه المقرّبون مواضع رحلته على البصرة والأحساء والحرمين، وأضاف مؤرّخوه الثانويون أقطاراً ومدناً كثيرة .. أضافوا مصر والقدس ودمشق و حلب واسلامبول وبغداد وكردستان وهمذان وأصفهان والرّيّ وقُم، وسمعت بأخرّة من يقول إنّه قرأ في كتاب مخطوط لشيخ من الموصل يقول فيه: إنّه (أي محمد بن عبد الوهاب) أخذ عنه . والأدلة، لتصحيح هذه المضافات إلى الأقطار الثلاثة، ليست متوافرة ^(١) .

ويعيننا من هذه الرحلات أن نعرف ماذا أفاد من علم، واكتسب من تجارب، وخبر من أحوال هذه المجتمعات في شرقي جزيرة العرب وغربيها وشمالها، وما انعكس من هذا كلّه على فكره من تصورات، وارتسم في ذهنه من خطوط الإصلاح ومساره .

كانت هذه المدن التي رحل إليها طلباً للعلم، أكبر مباءات العلوم العربية والإسلامية في جزيرة العرب، يفد على مدارسها الطلاب من نجد ومن الأقطار الإسلامية .

وفي البصرة، وقد أمّها مرّتين وكانت إقامته فيها أطول إقامة قضاها خارج بلده ^(٢)، لقي جماعة من العلماء، سُمّي منهم واحدٌ وهو (الشيخ محمد

(١) الصحيح المتواتر هو ما تحدث به المؤرخون المقرّبون أن رحلته في طلب العلم اقتصر على الحرمين الشريفين، والبصرة، والأحساء .

(٢) الصحيح أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يذهب إلى البصرة إلا مرة واحدة .

المجموعي^(١)، تلقى عليهم النحو فأتقنه، ودرس الحديث والفقه، وفقه البصرة في الغالب فقه مدرسة أبي حنيفة .

وفي الأحساء وجد فقهاء، منهم الحنبلية ومنهم المالكية ومنهم الشافعية، وهي نسب إلى مدارس سنية متشابهة، وليست مذاهب متدايرة، وعند بعض هؤلاء الفقهاء وجد استقلالاً في النظر، وصورة إلى الترجيح، وجراءة على الحكم المخالفين، ووجد عند آخر ميلاً إلى كتابة التاريخ، كما وجد « من يفتي الرجل بقول إمام، والثاني بقول آخر، والثالث بخلاف القولين ويعد ذلك فضيلة وعلماً، ويقال: هذا يفتي في مذهبين أو أكثر »، وينكر محمد بن عبد الوهاب ذلك ويقول فيه :

« ومعلوم عند الناس أن مراد هذه الفقيه، هو العلو والرياء وأكل أموال الناس بالباطل ».

وقد اقتبس من خيار هؤلاء، وتذاكر معهم في شؤون من التفسير والحديث والتوحيد وأصول الإسلام، أخذاً وعتاءً .

وفي المدينة المنورة، التي باكرها في صباه، وعرفها ملتقى طلاب العلم من الأقطار الإسلامية، رأى حياة تختلف عن حياة الناس في البصرة والأحساء، ووجد علماء يحسنون أنواعاً من العلوم والفنون، وطرائق في الدروس والإقراء لا عهد له بمثلهم في بلده، وحضر دروس هؤلاء في المسجد النبوي، ونهل من موارد العلم الذي يفيضون فيه، ومن كل أفاد وانتفع، ولكنه اصطفى منهم عالمين اثنين انجذب إليهما طبعه وفكره، فوثق

(١) هو الشيخ محمد الجموعي نسبة إلى محلة المجموعة بالبصرة أخذ عنه الحديث والفقه واللغة العربية. انظر مشكوراً: « عنوان المجد في تاريخ نجد » للشيخ عثمان بن بشر (١ / ٢١).

من صلاته بهما .

أصاب عند هذه العالمين الفكر الإصلاحِيّ، والدعوة إلى التوحيد الخالص والتزام عمود الكتاب والسنة، ورفض التفرق في العقيدة، وإبطال البدع والمحدثات التي تلصق بالإسلام، فتشوّه محاسنه وتبطل قوته، والإسلام منه بريء ولها منكر .

وقد أفاد من أحدهما (وهو عبدالله بن إبراهيم بن سيف: عالم نجدي، أثرت أسرته المجاورة، فصار مدنيّاً) ^(١) إرشاداً إياه إلى مؤلفات تقي الدين بن تيمية علامة الإسلام المنقطع النظير، والمفكر الأصيل الكبير العقل الواسع الرواية والعميق الدراية، والثائر الأكبر على الفساد والانحراف، والمؤلف المبتكر الذي بلغت مؤلفاته نحواً من أربع مئة كتاب وفي كل كتاب من العلم والفكر والنظر الصادق ما لا يظفر بشبيه له أو قريب منه إلا عند كبار أصحابه وتلاميذه، وفي مقدمتهم شمس الدين ابن قيم الجوزية، وقد برع وفاق فكان قمة شامخة في العلم والفكر والنظر والإخلاص. وهكذا فتح له (ابن سيف) الطريق الأفيح إلى عباب المعارف، وقاده إلى النهل والعلل من أصفى ينابيع المفاهيم الإسلامية، والتضلع من ريبها الشافي، ووصل أفقه بأفق الإصلاح الذي ينشده، وسدده على النهج القويم المستقيم .

وأفاد من الآخر (وهو الشيخ محمد حياة السندي: عالم نير العقل سديد

(١) هو الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف، أصله نجدي من أهل مدينة المجمعنة ينتسب إلى قبيلة شمر، ولد بالمجمعنة وانتقل منها مع والده إبراهيم إلى المدينة النبوية وسكن بها، وقرأ على علمائها، والشيخ عبدالله المذكور عالم مشهود له بالعلم والمعرفة. توفي رحمه الله تعالى في المدينة النبوية سنة ١١٨٩ هـ.

انظر مشكوراً: « عنوان المجد في تاريخ نجد » للشيخ عثمان بن بشر (١/١٧)

الرأي، من أهل السنة) ^(١) تبصيراً بالاستقلال في الفهم وجدواه، وتنفيراً من التقليد والتعصب لمذهب بعينه من هذه المذاهب الفقهية، أو المدارس الفقهية في الأصح، وإرشاداً إلى الدّوران مع الحق حيث كان، استدلالاً عليه بالأدلة القواطع من صحيح النقل وصريح العقل، ذلك أن الله جل وعلا قد هدى التبصير والتفكير واستعمال العقل لتبيين كل أمر، وبشّر عباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ووصفهم بأنهم هم الذين هداهم الله وهم أولوا الألباب.

###

تلك جمل من محصول (محمد بن عبد الوهاب)، تصف ألواناً من المنازع العقلية والمعتقدات والمشارب، وقد أحاط بكل شيء منها علماً، ووعياً عميقاً، وتمثله فكره تمثلاً تاماً، فأفاد منها حظوظاً من العلم والفكر والنظر الجديد.. وانضاف إلى ذلك علم آخر من أحوال هذه المجتمعات، التي عاش فيها في شرقيّ جزيرة العرب، وغربيها وفي البصرة، وقد لابس فيها الناس، وبلا معتقداتهم وتعبداتهم، وما هم عليه من حق ومن باطل،

(١) هو الشيخ العلامة المحدث محمد حياة سندي، له باع طويل في معرفة الحديث وأهله، وله حاشية مشهورة على صحيح البخاري، أخذ العلم عن جماعة من العلماء منهم الشيخ عبدالله ابن سالم البصري صاحب كتاب «الإمداد في علم الإسناد» وأخذ عنه جماعة من العلماء من أجلهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ علاء الدين السوري. توفي الشيخ السندي في المدينة النبوية سنة ١١٦٥ هـ - رحمه الله تعالى -.

انظر مشكوراً: « عنوان المجد في تاريخ نجد » للشيخ عثمان بن بشر (٢٠ / ١)

ووجد البلوى - بلوى الإنحراف عن أصول الإسلام الصحيح في المعتقدات والتعبادات والمعاملات، وفي النزوع إلى التجسيد، والتلبس بالبدع ومحدثات الأمور - بلوى عامّة، وهي في البصرة والأحساء والحرمين مثلها في العينة بلده .

وقد كان حسب في صباه الشأن خاصاً ببلده، فإذا هو أكبر ممّا كان يظنّ.

وقد خرج من العينة، ليعود إليها يصلح معتقدات ناسها، ويقيمهم على شرائع الإسلام الصحيح، ويقوم المناد المعوجّ من الأفكار والأعمال .

ولكنه انتهى آخر الأمر، بفضل ما اكتسب في هذه الرحلات العلمية الواعية المستوعبة، إلى التفكير في إصلاح أهل (جزيرة العرب) أجمع، وبسط سلطان فكره على ما وراء جزيرة العرب من أوطان الإسلام .

استصفي ذهنه الناقد الممحص المحضّن واللّباب، وطرح الزّؤان والرّيف وشخص الداء، وعين الدوّاء، وأوفى من ذلك على الغاية .

ثم رسم الخطوط العريضة للإصلاح ومساراته على بيّنة من العلم ونهجه القويم، وقد وقرّ في قرارة نفسه أن يحقق في (جزيرة العرب) أمرين عظيمين متلازمين، لا ينفصم أحدهما من الآخر، ولا يقوم أحدهما بدون الآخر :

إنشاء مجتمع إسلامي مؤجّد ومؤخّد، رفيع الفكر، صالح العمل، حيّ قوي دفاق، متحرك ومتوثب في سبيل الخير الإنساني العام، تُطبّق فيه أحكام الشريعة العادلة السمحة في جميع الحالات .

وتكوين دولة مؤمنة عادلة قوية الشكيمة، تنتظم (جزيرة العرب) تحت

راية القرآن، وتقضي على تعدد الإمارات والإمتهارات، وتذيب الفروق، وتقيم الصلاح بالإسلام: تحوط به المجتمع وتراه أحسن ما تكون الحياة والرعاية، صدقاً وعدلاً وإخلاصاً وبراً وعملاً، والدولة عنده الولاية، وسوف أذكر كلامه فيها.

استوحى فكره هذا من طبيعة الإسلام وتاريخه، ففكر ثم قدر ثم عمل، واتبع في مساره الفكري والعملية خطأ الرسول الأعظم μ ، خطوة خطوة، وما حاد عن هذا المسار القويم قيد شعرة في شيء ما من عقيدته ومن عمله

إنه نظر إلى الإسلام في بدايته، وكيف صلح به الناس، وكيف قامت دولته العظمى الإنسانية العادلة الرحيمة في الأرض، لأول مرة في تاريخ البشرية المعروف.

ثم نظر إلى ما صار إليه المسلمون من بعد، من التفريق والفساد وزوال السلطان، والتمس العلة في ذلك، فاستحال في عقله أن يكون من السبب الواحد مسبباً متباينان: ارتقاء وهبوط، توحد وتفريق، عزة وذلة.. إلى آخر ما هنالك من الأضداد، ووجد العلة كل العلة فيما تدلى إليه المسلمون كامنَةً في هذا الانحراف عن أصلي الإسلام العظيمين: كتاب الله، وسنة رسوله.

تولى كبر جريمة هذا الانحراف أناس دخلوا في الإسلام ظاهراً، وأسروا الكيد له باطناً على غاية من سوء النية والمكر والدهاء، بعد أن عجزوا عن القضاء عليه مواجهة. وقد ذهب هؤلاء في أعمالهم الباطنية الرهيبة طرائق قديماً، ولبسوا لبوساً متعددة الألوان والأسماء، ولكن المقاصد تحته واحدة.. وتوصلوا على تراخي الزمن إلى ما أرادوه.. لقد جعلوا القرآن

عمود الإسلام الأكبر عَضِيْنٌ، وأدخلوا إلى العقول فيما أدخلوه أنه ذو وجهين: وجه لفظي ظاهر غير مراد، ووجه معنوي باطن والواجب العمل به في المعتقد وفي التَعَبْد، وتأولوا آياته بأهوائهم فصرفوا الألفاظ عن دلالاتها، وحرّفوا وبدّلوا، وبذروا بذور الشرك الخفي والعلني، فأبطلوا بذلك التوحيدَ الخالصَ وهو سر الوحدة والقوة والعزة، ووضعوا مقادير لا تحصى من الأحاديث المنكرة الواهية السخيفة، وعقلُ الرسول القرآني يُجَلُّ عن مثلها، ودسّوا الإسرائيليات وخُرَافات يهودَ في التفاسير وشروح الحديث وكتب التاريخ .. إلى آخر ما يعرفه أهل العلم من الأفاعيل الخبيثة، مما أفسد العقول، ونشر الضلال والفساد، وفرّق الوحدة، ومزّق الشمل، حتى تعددت الفرق وتدابرت، فلم يكن الناس يلتقون إلا على قتال أو شحناء ...

من الحالة الأولى، ولد العرب ولادتهم الجديدة التاريخية وصاغوا تلك الدولة العظيمة وما استتبعت من إنشاء حضارة عربية إسلامية، انتظمت أجناس الناس تحت راية الإسلام على مثال من الإخوة والعدالة والمساواة غير معهود في تواريخ الحضارات قديمها وحديثها .

ومن الحالة الثانية كان المنقلب .

وإن فلأ معدى عن العودة إلى الأصل القويم .. إلى منبعه الصافي ومشربه العذب: تنتشر به العقول، وتتضلع بريّه النفوس، لتحيا كما شاء لها الله أن تحيا كريمة عزيزة .

ذلك ما قام في فكر ^(١) (محمد بن عبد الوهاب)، وخامر فؤاده .

(١) لم يكن عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - فكر من تلقاء نفسه، أو من عصارة ذهنه، محمد بن عبد الوهاب قام بإحياء ما اندرس من معالم الإسلام الصافي النقي، على ما كان عليه محمد p وأصحابه الكرام، ودعا المسلمين إلى التمسك بهذا النهج الصحيح.

وإنه لمطلب في مناط الثريا، ولن يناله إنسان قاعداً غير قائم، ولا عامل ناصب، فلا بُدَّ لمن أراد مثله من العمل وطول الجهاد والمثابرة والصبر .

ووجد (محمد بن عبد الوهاب) القدوة الحسنة في سيرة رسول الله وعمله وجهاده وصبره، فالتزمها بكل شرائره تطبيقاً جاداً، مثابراً ستين عاماً إلى أن لقي وجه ربّه، وقد أطبق جفنيه وراية القرآن ترفرف على جزيرة العرب ودولة التوحيد قائمة تنتظم البلاد .

ذلك مطلب كان في مناط الثريا، فأنزله بين يديه، ورفع به أمر الحياة

أنزله لا بعلمه وحده، فإنّ العلم في الناس كثير، ولكن ما قيمة العلم مدوناً في الكتب لا يُعمل به؟ لقد أُلِّفت ملايين من الكتب في كل علم وفنّ، فماذا أجدت المسلمين في تفرقهم وهوان شأنهم وزوال سلطانهم من الأرض؟

أنزله ومعه العلم والعمل الدائب الذي لا يفتر لحظة من اللحظات .

على أنّ العلم والعمل الدائب، لا يجديان في تحقيق المطامح الكبيرة ما لم يُزفداً بخصلة عظيمة تُصرّف العلم والعمل، تلك هي خصلة العلم الكلي بالسياسة الشرعية، وقد حباها الله جلّ وعزّ هذا الرجل، فكمّلت له بها صفات الزعامة المطلقة، وتيسر له بها وهو يصرف جهاده أن ينزل الثريا من مناطها وهو قائم غير قاعد .

إنّ كل خصالة العبقريّة المتحابّة، ما كانت لتبلغه غايته، لولا امتلاكه هذه الخصلة من العلم الكلي بالسياسة الشرعية، وتصريفه شؤون الدعوة بها في كل حالاته.

تقوم هذه الخصلة العظيمة عند صاحب الحظ العظيم على الفكر العميق الذي يتعلق بالكليات أكثر مما يتعلق بالجزئيات، ويطلب الجوهر لا العرض، واللباب لا القشور، وتلتمس في كل ذلك أسباب الحكمة وحسن التلقّي والعطاء.

تأملت في المنظور والمسموع من سيرة (مجدد بن عبد الوهاب)، وفي إدارته دقة ثورته التصحيحية ستين عاماً، فوجدته يتمتع من هذه الخصلة بحظّ عظيم، وأنّ عمله كلّه الذي اكتسب قد ارتبط عنده بالبصيرة والتفكير والتدبر والحكمة، وبصيرته تدين لطبعه السليم ووعيه، ووعيه وعي كونيّ في أعماقه الفكرة الإلهية راسخة الجذور وتامة الحضور، وقد قامت عنده على سواء الإيمان العميق بالذات الإلهية، وعلى سواء الحق والنزاهة والإخلاص، ومُدرّكاته تشير إلى النظر المحيط والتصفية والتيقظ للجوهر وطلبه. وجدته وهو ينقل هذه المدركات من أصول العلم الكلي بالسياسة الشرعية إلى تلاميذه والدعاة الذين أعدهم على سواء العلم والعمل والخلق، ويلزمهم العمل بها دائماً وأن لا يفارقوها بحال من الأحوال .

كتب رحمه الله لبعض من كاتبهم ناصحاً ومرشداً ومعلماً (ولينظر إلى يُسر تعابيره وإلى صدقه فيما يقرر كيف يعزو الرأي إلى صاحبه ولا يدّعيه لنفسه، ثم إلى التفقه في الشيء قبل العمل به، وإلى لزوم ربط العلم بالعمل وبالسياسة الشرعية في منطلقاته)، قال :

« وأهل العلم يقولون: الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحتاج إلى ثلاث: أن يعرف ما يأمر به وينهى عنه، ويكون رفيقاً فيما يأمر به وينهى عنه، صابراً على ما جاءه من الأذى، وأنتم محتاجون للحرص على هذا الفهم والعمل به، فإنّ الخلل إنّما يدخل على صاحب الدين من قلة العمل

بهذا أو قلة فهمه، وأيضاً يذكر العلماء أنّ إنكار المنكر إذا صار يحصل بسببه افتراق، لم يجز إنكاره، فالله في العمل بما ذكرت لكم، والتفقه فيه، فإنكم إن لم تفعلوا، صار إنكاركم مضرّة على الدين، والمسلم ما يسعى إلا في صلاح دينه ودينه». «.

وفي رسالة ثانية، نجده يتواضع فيما يقرره، ويدعو لمذاكرته ونصيحته فيما يظنّ أنّه على غير جادة الحق، فيقول :

« وإن تفضّل الله عليك بفهم ومعرفة، فلا تعذر لا عند الله ولا عند خلقه من الدخول في هذا الأمر. فإن كان الصواب معنا، فالواجب عليك الدعوة إلى الله وعبادة من صرح بسبب دين الله ورسوله. وإن كان الصواب معهم أو معنا في شيء من الحق وشيء من الباطل، أو معنا غلو في بعض الأمور، فالواجب منك مذاكرتنا ونصيحتنا، « وتوريتنا » عبارات أهل العلم، لعلّ الله أن يردنا إلى الحق .. وبالجملّة فالأمر عظيم، ولا نعذر من تأمل كلامنا وكلامهم، ثم تعرضه على كلام أهل العلم، ثم تبين في الدعوة إلى الحق وعبادة من حادّ الله ورسوله ممّا أو من غيرنا ».

ومن هذه البابة من سياسته الشرعية، وإيثاره الحق، أشياء كثيرة في كلامه. وقد كتب إلى ابن فقيه كان أبوه يرأسه، ثم حبس عنه رسائله، وأعطاهما بعض الناس يقرؤونها على الملأ، قال:

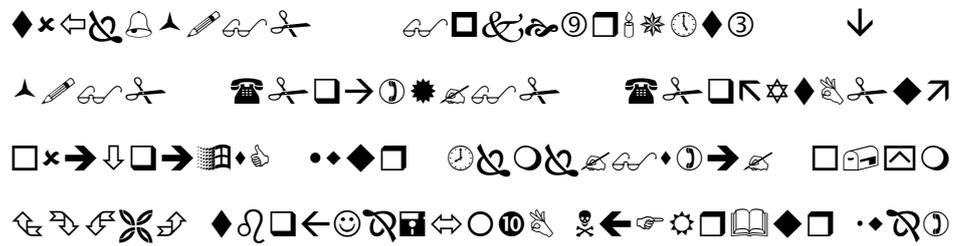
« فإن كان يرى أنّ هذا ديانة، ويعتقده من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأنا - والله الحمد - لم آت الذي أتيت بجهالة، وأشهد الله وملائكته أنّه إن أتاني منه، أو ممّن دونه في هذا الأمر، كلمة من الحق، لأقبلّها على الرأس والعين، وأترك قول كل إمام اقتديت به، حاشا رسول الله ﷺ فإنه لا يفارق الحق ».

وكتب إلى آخر، وهو يصف وعيه الكوني، والتزامه عمود الحق في كتاب الله وسنة رسوله p .

قال: « وأما ما ذكر لكم عني، فأني لم آت به بجهالة، بل أقول - والله الحمد والمنة وبه القوة -: إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، ولست - والحمد لله - أدعو إلى مذهب صوفي، أو فقيه، أو متكلم، أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم.. بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله، p ، التي أوصى بها أول أمته وآخرهم، وأرجو أنني لا أرد الحق إذا أتاني، بل أشهد الله وملائكته وجميع خلقه إن أتانا منكم كلمة حق لأقبلتها على الرأس والعين، ولأضربن الجدار بكل ما خالفها من أقوال أئمتنا، حاشا رسول الله p فإنه لا يقول إلا الحق»^(١).

وأوصى تلاميذه الدعوة أن يدعوا الناس بالتالي هي أحسن وبالموعة الحسنة، إلا الذين ظلموا أنفسهم، فقد أمر الله رسولي: موسى وهارون، أن يقولوا لفرعون قولاً لينا، لعله يتذكر أو يخشى، لأنه يريد من دعوته أن يجمع الناس على الهدى. وكتب :

« إن بعض أهل الدين ينكر منكرأ، وهو مصيب، لكنه يخطيء في تغليظ الأمر إلى شيء يوجب التفرقة بين الإخوان، والله تعالى يقول :



(١) انظر مشكوراً: « تاريخ ابن غنام » للشيخ حسين بن غنام الأحسائي: ص ٢١١.

الذي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث - خير له. وأخبر أنه أنزل الكتاب بالحق والميزان، وأنزل الحديد فيه بأس شديد، ليقوم الناس بالقسط. ولهذا أمر، ρ أمته بتولية ولاية الأمور عليهم، وأمر ولاية الأمور أن يؤتوا الأمانة، وأن يحكموا بالعدل، وأمر بطاعتهم».

أقول: على قواعد القرآن والسنة، وهذه المدارك الحكيمة الحصيصة العالية، وقد بلغت الغاية في الضلالة والسداد وإصابة الأهداف كما نرى - أقام الرجل بناء دعوته، وأفرغ في هذه الدعوة كل طاقاته وصفاء عقله وقلبه. فجاءت على مثاله ضلعةً وسمواً وجلالاً .

وبدأ المرحلة التطبيقية العملية بعد عودته من المدينة المنورة إلى العيينة، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، ولكأنني به حين أطلت على جزيرة العرب فرداً لا وَرَرَ له من أحد، ناجى ربه جل وعلا أن لا يذره فرداً، وأن يمدّه بعونه ورحمته، ويبلغه ما يؤمّله.. لا لدنيا يصيبها لنفسه، ولكن لهداية قوم ضلّوا عن سواء السبيل، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فأراد لهم الهداية والعزة .

مضى في الدعوة في فتوته هذه، بقلب يملؤه الإيمان واليقظة والشجاعة، وعقل تعمّره الحصافة والعلم والتجارب، وصدرٍ تتوثب فيه العزيمة الصُّلْبَة والإرادة الجارفة، وبصيرة تتألق بالنور الذي يضيء له الدرب في ليل الناس البهيم.

استلهم روح القرآن، ووصل أفقه بأفقه غير حائد عنه، وتأسى بسلوك الرسول عليه الصلاة والسلام في جميع مراحل الدعوة سَمْتاً بعد سَمْت، فبلغ كما بَلَّغ، وبشّر، وأنذر... بَلَّغ الأفراد والجماعات، وبلَّغ الأغنياء والفقراء

والرؤساء والمرؤوسين، وسير الرسل والدعاة إلى من دنا ومن بُعد عن جزيرة العرب من أصحاب السلطان، وسمع الناس منه ومن دعائه كلاماً جديداً، مقروءاً ومسموعاً، لانت له عقول قوم فدانوا وآمنوا واتبعوا، واستغلقت عقول قوم فرفضوه، بل نصبوا له الحرب، ووقفوا دونه يصدون عنه الناس، ويسفهون الداعي وما يدعو إليه من الحق، وتألّبوا على الرجل، وحاولوا غيئته ليذهبوا بريحه، وذهب إلى أصحاب السلطان يقنعهم بما هو عليه من الحق، ليدخلوا في دعوته، ويمتئهم بالفوز بخيري الدنيا والآخرة إذا هم آزره وناصروه. وقد انتسى في هذا الشأن أيضاً بالرسول العظيم، عليه أفضل الصلوات والتسليم، فوقق .

وأخذ البيعة من بعضهم ليضمن قيام « الولاية » كما كان يقول أو الدولة كما يقولون اليوم، ليحفظ بذلك مكاسب النصر الروحي الذي استطاع أن يحققه في كثير من أرض الجزيرة. ولكن من بايع على ذلك نقض البيعة، لأن سلطاناً أقوى منه فرض عليه أن يتخلى عما التزمه من هذه البيعة ومن نصر الداعي.. وهنا كان الإختيار الصعب، وكان الموقف الحاسم الذي يقرر مصير الدعوة، وكان ذلك كله يتوقف على القوة النفسية التي حدثت بهذا الداعي الكبير على أن ينهض بهذا الأمر الكبير، وإذا هي عنده أثبت ثباتاً من الجبال، وعند الشدائد تظهر عزمات الرجال، فما وهن عزمه، ولكنه ازداد قوة، ولا ضعف إيمانه ولكنه ازداد يقيناً بنصر الله له، وانتقل إلى حيث يأمل أن يدخل في دعوته من الأمراء من ينصره ويقيم « الولاية » .

وكأن الله اتّخر الخير كلّهُ لمن هو أهله من أمراء الجزيرة الكبار أصحاب الشوكة والصولة، لأمرٍ أرادهُ سبحانه كونه ودوامه، فساقه التوفيق إلى (الدرعية)، وكم لله من إرادات يكتب بها لأناسي، ويحرمها أناسي آخرين! وكان أمير الدرعية (مجدد بن سعود) نائماً، فاحتضنته السعادة بقدم هذا الرجل الكبير عليه، وكان ذلك قدراً من الله مقدوراً، والله عاقبة الأمور .

قذف الله في قلب هذا الأمير الموفق حبه وتصديقه واستجابته لما دعاه إليه من دعوته، فبايعه على أن ينصره نصراً مؤزراً، ويعز الإسلام ويحميه، ويعيد إليه رونقه وجلاله وقوته الفاعلة في (جزيرة العرب) تحت (راية القرآن).

وأنشأ الله على يده قيام الدولة العربية الإسلامية التوحيدية في (جزيرة العرب) بعد غياب عنها دام أكثر من ألف عام، وذلك لتعود (جزيرة العرب) كما بدأت مركز إشعاع على العالم، ولبقى الملك في عقب هذا القائد المؤمن الصادق إماماً بعد إمام، ما لزموا نهج الإسلام الصحيح، وأعدوا ما استطاعوا من قوة، وبروا واتقوا وصلحوا، وأصلحوا، وصاروا وصار العرب والمسلمون معهم يداً واحدة .

وفي هذا بلاغ، والله يفعل ما يشاء :

لقد كان التقاء (مجدد بن عبد الوهاب) بـ(مجدد ابن سعود) توفيق قدر لقدر، ولأمر أراد الله إنفاذه على يديهما معاً، ولست أدري أكان يتم لـ(مجدد ابن عبد الوهاب) أمره لو لم ينهض (مجدد بن سعود) لبيعته ونصره؟ وكذلك ما كان يكون من رفعة الشأن لمجدد بن سعود وعقبه لو رفض دعوة (مجدد بن عبد الوهاب)، ولبت حيث هو أميراً على قرية؟ بل ما كان يكون عليه

(جزيرة العرب) وأقدار^(١) (العرب) لو بقيت على عزلتها وغطيتها في نومها الطويل قبل صرخة (محمد ابن عبد الوهاب) ؟.

عقلان كبيران التقيا، وقلبان صافيان اتّحدا وروحان قويّان تحابّبا
وامتزجا، فأتيا بالعجب العجاب!

ولنترك أحداث التاريخ لكتب التاريخ، ولننظر إليها بعين الخيال يطوف على مسارح الجزيرة لثشاهد مواكب التوحيد موكباً إثر موكب، ترفرف عليها راية القرآن، وتحدها أهاليج النصر بكلمة الله العليا: « لا إله إلا الله محمد رسول الله، والله أكبر » فيتلقّت الدهر، ويهتّر الثرى، وتردد الصدى السماء، والله العزّة ولرسوله وللمؤمنين، فقد صدق الله وعده، وأيد جنده، ونصر حزبه، وحزبُ الله هم المنصورون .

وتطبق الأقفان على هذه المواكب، لتحفظ صورها الروائع في سواد العين، وهي مواكب خوالد، لا تبرح ذاكرة التاريخ. نظمها جهاد هذين العربيين المسلمين العظميين ملاحم كالشعر، ثرينا أكبر نقلة في هذا العصر الحديث من الخرافة إلى الحقيقة، ومن التفرق إلى التوحد، ومن الجمود إلى الحركة، ومن الإنطواء إلى الإنتشار، ومن الإنغلاق إلى الإنفتاح .

وليكن هذا شأن العرب والمسلمين إلى الأبد، إذا شأؤوا أن يحيوا سادة في أوطانهم، وأحراراً أعزة .

لقد ظلت هذه الملاحم الخوالد إلى هذه الساعة دون أن تنال حظاً من التصوير البارع، فهي تستشرف القلم الصنّاع يرسم واقعها الخياليّ وخيالها الواقعي، ويجسدّ مواكبها ومعانيها في ألواح من النثر الفني البياني الرفيع

(١) الأولى أن يقال مشيئة الله وقدره، لأن الأقدار لا بد أن تنسب إلى مقدرها وهو الله سبحانه وتعالى.

والشعر «الشاعر» العبقري الأصيل، تحدث البهجة في النفوس، وتهيج العزائم للإقتداء .

فهل من فتى نابغ من أبناء هذه الجزيرة المتميزة، أم البطولات والعتاء ومصدر الفصاحة والبيان، يُعدّ مواهبه لهذا الخير، ويصوّر جلال هذه العبقريات التي أطلت بها على الدنيا في هذا العصر الحديث؟ إنني لأطمع ولا أقطع الرجاء.

إنّ (محمد بن عبد الوهاب) لم يعرف على حقيقته بفكره الكوني وآفاقه ومعناه.. إنه من معنى الإسلام كبيرٌ وكريم، والمعنى الكبير إنّما يحمله إلى العقول البيان الرفيع، فهل حمل روح الإسلام وجماله وجلاله إلى أُمم الأرض من كل جنس ولون، غيرُ الإعجاز البياني في كتاب الله والسنة الصحيحة المطهرة؟.

نضر الله وجه (محمد بن عبد الوهاب).. ما أبهاه بين وجوه المصلحين المجددين الأفاضل! وما أجلّ جهاده في الله، وأكرم دعوته إلى الله .. إلى الصراط المستقيم!



محمد بهجة

الأثري^(١)

الفهــــــــــــــــرس

الموضــــــــــــــــوع

الصفحة

المقدمة وفيها سبب تأليف الكتاب ٣

(١) هو محمد بهجة بن محمود بن عبدالقادر المعروف بالأثري: كاتب موسوعي، علامة. ولد ببغداد، وتعلم الفرنسية والتركية والإنكليزية، وأخذ عن علماء العراق الكبار، ولازم العلامة المحقق محمود شكري الألوسي الذي لقبه بالأثري لولعه بالحديث الشريف، وهو من أعضاء مجامع اللغة العربية بدمشق، وبالقاهرة، وعمان، والمجمع العلمي العراقي، قرأ علوماً كثيرة فتضلع منها. أخذ يكتب ويؤلف وينظم ويحقق ولما يبلغ العشرين من عمره، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤١٦ هـ بعد حياة حافلة بالعلم والدعوة والتحقيق. انظر مشكوراً: تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري: ص ١١٣- ١١٨ .

- ٦ ما الصنع العظيم الذي صنعه محمد بن عبد الوهاب ؟
- ٨ وكان إشراق النور الجديد من قلب هذا الظلام
- ١١ سيرة محمد بن عبد الوهاب
- ١٨ تلك جمل من محصول محمد بن عبد الوهاب
- ٢٣ تأملت في المنظور والمسموع من سيرة محمد بن عبد الوهاب
- ٢٧ وبدأ المرحلة التطبيقية العملية بعد عودته من المدينة المنورة إلى العيينة
- ٢٩ بلاغ الدرعية الكبير

!!!